ISSN 2170-0796

دراسة لسانية في بنية الخطاب بين التراثيين والمحدثين

الأستاذ : خليفي عبد الحق جامعة أدرار

عُنيت بعض الدراسات البنيوية، بخصائص النص الصورية على أساس أنه نسق من الوحدات والتراكيب المجردة دون أن تهتم بخصائصه الدلالية والتداولية التي تتفاعل بشكل ملحوظ مع الخصائص الصورية. في مقابل ذلك عنيت مقاربات أخرى بالجانبين الصوري- الصرفي والتركيبي والصوتي. ناتج هذا الصنف من المقاربات ووصف جزئي عُدَّ عند منظريه "نحوا "كاملا للخطاب بل للغة.أما الإشكالية التي يتناولها هذا البحث هي بنية الخطاب في سياقاته المختلفة انطلاقا من خصائص الجملة العربية من خبر وإنشاء ومن حيث القوة التي يتضمنها معنى الجملة والتي تُفهم سليقةً من خلال السياق.

وما نستحضره بهذا الصدد المقاربات التداولية التي أغنت الدرس اللغوي بمفاهيم مستقاة من فلسفة اللغة العادية لكنها على أهميتها وبالرغم من عمق ما اقترحته من تحليل للخطاب الطبيعي لم ترق نظرا لخصوصية موضوعها إلى أن تعد نظرية لسانية متكاملة شاملة.

مع ذلك" لن يفوتنا أن نذكر بأن جهود رواد المقاربة التداولية و ما توصلوا إليه من نتاج شكّل مرجعا هاما من مراجع بناء وصوغ نظريات لسانية مؤسسة تداولية (أو وظيفية)كنظرية النحو الوظيفي التي نتبناها خاصة ما تفرع عنها من نماذج لسانية خلال العقد الحالي".

اقترح أحمد المتوكل مقاربة قد تكون بديلا للمقاربات السائدة ،يمكن تلخيصها كما يلي:

للخطاب الطبيعي خصائص وظيفية تداولية ودلالية وخصائص صورية صرفية-تركيبية وفونولوجية تتعلق فيما بينها على أساس تبعية الخصائص الثانية لخصائص الأولى.

ويتحتم على المقاربة التي تستشرف إحراز الكفايتين الوصفية والتفسيرية أن ترصد كلا الفئتين من الخصائص دون إغفال أي منهما وأن تقيم وصفها وتفسيرها لهذه الخصائص على أساس تحكم الوظيفة في البنية.

- تقتضي مقاربة أنماط الخطاب نظرية عامة ترصد خصائص الخطاب الطبيعي التي تتقاسمها تلك الأنماط على تباينها.

-ترصد نظرية الخطاب العامة قدرة مستعملي اللغة على إنتاج وتأويل الخطاب باعتبار أن هذه القدرة الخطابية جزء من القدرة اللغوية العامة.

ويعد الجرجاني من الأصوليين الذين ميزوا في دراستهم بين معرفتين: «المعرفة بأوضاع اللغة معجما ونحوا التي يتقاسمها كل المتكلمين وامتلاك ما أسماه "الفصاحة " في إنتاج الخطاب التي ينفرد بها متكلمون دون غيرهم. " فالجرجاني يطلب من المتلقي من أجل أن يفهم معنى المعنى، أو المعنى الشأن لعبارة مثل " كثير الرماد " أن يكون محيطا بالعلاقات غير اللغوية التي يتوقف عليها فهم المعنى . وهذه العلاقات ماثلة في أوضاع البيئة العربية البدوية، حيث تقضي العادات عندهم بتقديم الطعام لضيفهم الوافد، وحيث يكون يطهو الطعام في قدور وذلك عندما تشب النار تحت القدور في الحطب الذي ينتهي إلى رماد، فيتكاثر الرماد نتيجة كثرة الطهي، ويكثر الطهي لكثرة الضيوف وهكذا.

فالمتلقي لا بد أن يلم ويحيط بكل هذه الأمور حتى يستطيع أن يدرك المعنى معنى الكرم في مثل تلك العبارة . وهذا هو المقام الحضاري الاجتماعي الذي لا يمكن أن تفضي العبارة إلى معناها الصحيح إلا في إطاره فقط.

ISSN 2170-0796

والسؤال الذي يطرح هنا أن مثل هذه العبارات " كثير رماد القدر "، " نئوم الضحى "، " طويل النجاد " التي قد تشتمل في أصلها على كنايات أو استعارات أو تمثيليات أو غير ذلك، ما هي إلا عبارات مبتذلة — من كثرة استخدامها — فهي قد ترددت على الألسن كثيرا فثبت لها معناها الثاني بالتواتر، فلم تعد بالمتلقي حاجة إلى معرفة المقام الحضاري الاجتماعي لمعرفة معناها. وعندئذ لا تبرز أهمية الاتكاء على مثل هذا المقام في فهم المعنى الثاني لمثل هذه العبارات إلا عند الوقوف على عبارات بكر. وهذا معناه أن مجرد معرفة المقام الحضاري والاجتماعي في مجتمع بعينه لا تكفي وحدها للوصول إلى المعنى المقصد خاصة عند مواجهة عبارات بكر لم يبتذلها الاستخدام. عندها لابد أن نأخذ في الاعتبار بعدا آخر هو المقام الذي قيلت فيه العبارة، أهو مقام مدح أو مقام ذم أو مقام سخرية وهذا البعد هو الضابط وصمام الأمان للوصول إلى المعنى المقصود من بين المعاني الممكنة.
والأسئلة التي تطرح نفسها في هذا المقام:

هل تكون الصورة المجازية أكثر وضوحا من التعبير الحقيقي ؟
هل يسعى البيان حقيقة إلى الإفصاح ؟
بل ما الذي يدفع المتكلم إلى الخروج من منطق اللغة والوضوح بصور تنزاح عن الاستعمال الطبيعي للغة ؟
هل الأساليب البيانية منفصلة على حدود المعنى تماما وعلى الحالة الشعورية التي يمر بها المتكلم ؟
وهل أتى بها الكاتب أو الشاعر نتيجة وعي منه أو لا وعي ؟
وهل الأساليب خاطبها العقل ليفهم أم لينفعل ويتأثر ؟؟
وكيف تحدد هذه الأساليب الأحوال والمقامات الاجتماعية والثقافية والحضارية؟.

إن كل ما يتوخاه مستعمل اللغة من ضروب الأساليب البيانية إنما سببه دقائق المعاني التي في النفس ولطائف المقاصد التي يريد بلوغها باللفظ، فلا معتبر إلا هذا وإلا كان بكثير الألفاظ ضوضاء صوتية لا يعتد بها "
فالهدف من الأساليب البيانية أو الصور البلاغية ليس مجرد إقامة علاقات عقلية بين مشبه ومشبه به، أو افتراض أقيسه منطقية بين حقيقة ومجاز. إن الصورة البلاغية وسيلة الشاعر أو الأديب أو المتكلم ليعبر بها عن حالات لا يمكن له أن يتفهمها أو يجسدها بدونها، فهي الوحيدة القادرة على تقديم المعنى الذي يرومه أو الحالة التي يعيشها، بل هي المخرج الوحيد لشيء لا ينال بغيرها أو هي ترتبط بمستوى التجربة الفنية التي يعيشها فتحتضن هذه المشاعر وتعايشها وتقدمها في قالب جميل تعجز اللغة العادية أن تصل إلى مستوى هذه الأساليب . وباختصار هي أفانين التعبير عن الأحاسيس الكامنة في الصدور بواسطة الكلم، أو وجه من وجوه معاني القول . وبهذا المعنى لا تصبح الصورة شيئا هامشيا ثانويا يمكن الاستغناء عنه أو حذفه وإنما هي وسيلة حتمية لإدراك نوع متميز من الحقائق، أو لتحديد دلالة سيكولوجية خاصة.بالإضافة إلى أنها تمنح اللغة خصوصية إقامة علاقات بين الألفاظ جديدة تتميز بالتفرد، وتصوغ المعاني بطريقة خلابة تستلذها الأنفس وتطرب لها الآذان.
الأفعال الكلامية وتقوية الكلام :التقوية إستراتيجية خطابية يروم المتكلم باستعمالها لدعم خطابه في مقام التشكك أو التشكيك أو الإنكار وتقابلها إستراتيجية التقليل لرفع المسؤولية عن المتكلم أو التخفيف منها بنسبة الخطاب إلى الغير أو تنسيبه أو استبعاد تحققه أو إلقائه ملقى مجرد الاحتمال.

ISSN 2170-0796

وهذه القوة موجودة في سياقات القرآن الكريم المختلفة فمثلا عندما قال الله تعالى "حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم..." فنجد هذه الآية مطبقة عند أهل الأرض قاطبة ودون أي استثناء من سمع بها أو من لم يسمع بها .أما الآيات القرآنية التي تحوي "لا" الناهية :كقوله "ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا...."، وبالمقابل إذا لم تتجسس على عدوك فأنت آثم عندما نقارن بين الآيتين نجد أن أية التحريم تتضمن قوة في الفحوى أكثر من آية النهي.وعند المقارنة بين القوة الخطابية في المحرمات ومثيلها في المنهيات نجد أن الأولى تتصف بالشمولية والأبدية حيث يقوى الفعل الخطابي بوصفه طبقة من طبقات الفعل الخطابي بوسائل معجمية أو صرفية معززة بالتنغيم. و بفعل من أفعال التوكيد (مستعملا استعمالا إنجازيا) أو بلاحق من اللواحق التي تفيده،منها على سبيل المثال "بكل تأكيد "وبدون شك" و"فعلا «و"حقا"

تعلق الخطاب بالبلاغة

إن الحديث عن موضوع البلاغة في التراث العربي هو ليس تأصيلا للمفاهيم المتناولة عند الغرب بل لبيان الامتدادات المعرفية للمدونة العربية, وكذلك تقديم جانب من وجهات الأفكار الرائدة التي عرضها علماء العربية القدامى.

فالبحث في المجال التداولي" هو مرتبط أساسا بالتواصل اللغوي من جانب الاهتمام بالسامع واعتبار المخاطب, وبيان دور المتكلم في صياغة الخطاب وإنتاجه والإلمام بكل العناصر الفاعلة والإبلاغ والأخذ بمعيار الصدق والكذب في الأساليب وفي الشعر, وإمكانية مطابقته مع الواقع".

إن دراسة اللغة في التراث العربي تميزها بعض السمات التي هي من أهم المبادئ الحديثة للتداولية ، فقد تناول الدارسون القدماء التكلم و بينوا أنه يتم لغايات وأهداف ولإشباع الحاجات والحصول على فائدة .كما أنه يستعمل لأغراض ومآرب اللغة ذاتها.

وعن أسبقية العرب في معرفة أصول هذا الاتجاه يقول : سويرتي إن النحاة والفلاسفة المسلمين, والبلاغيين والمفكرين مارسوا المنهج التداولي قبل أن يذيع صيته بصفته فلسفةً وعلماً (...) فقد وظف المنهج التداولي بوعي في تحليل الظواهر والعلاقات المتنوعة. فمن أهم مصادر التفكير التداولي اللغوي عند العرب : علم البلاغة ، علم النحو، والنقد ، والخطابة ، إضافة إلى ما قدمه علماء الأصول الذين يمثلون إلى جانب البلاغيين اتجاها فريدا في التراث العربي، يربط بين الخصائص الصورية للموضوع وخصائصه التداولية وغيرها من المجالات الأخرى التي تتعدى مجال التداولية المحددة في الجانب اللساني فقط.

وقد عدَّ أحمد المتوكل الإنتاج اللغوي العربي القديم "أنه يؤُول في مجموعه(نحوه وبلاغته وأصوله وتفسيره...)إلى المبادئ الوظيفية التي تخص مختلف العلوم اللغوية العربية كعلوم القرآن مثلا, ولذلك فالوصف اللغوي لم يكن منصبا على الجملة المجردة من مقامات انجازها، بقدر ما نظر إلى النص بعده خطابا متكاملا بالنظر إلى الموضوع المتناول كان الوصف اللغوي يربط المقام بالمقال"، بين خصائص الجمل الصورية وخصائصها التداولية . حيث إن تطبيق المفهوم التداولي على اللغة العربية سيسهم في وصفها ورصد خصائصها وتفسير ظواهرها الخطابية التواصلية, «كما أن استثماره في قراءة الإنتاج العلمي لعلمائنا القدامى سيسهم أيضا في اكتشاف وتثمين جوانب من الجهود الجبارة التي بذلها أولئك العلماء الأجلاء. فاللغة العربية، شأنها شأن غيرها من اللغات الطبيعية، تشتمل على طائفة من الصيغ والأدوات التي يستعملها المتكلم للدلالة على القوة الانجازية التي يريد تضمينها كلامه كالتقرير والاستفهام والتمني والإخبار والنفي والإثبات والطلب والترجي",حيث كان على طوائف من العلماء العرب، ولا سيما

ISSN 2170-0796

البلاغيين الدارسين لعلم المعاني أن يتعرضوا للقوى المتضمنة في القول بغرض تحديد ما يقتضيه حال معين,نزولا عند قاعدة مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

التمني والتعجب وغير ذلك من الأغراض كلها ترجع إلى الإخبار. والتي تراد لشيء يوجد ومن العلماء العرب الذين عنوا بدراسة أسلوبيْ الخبر والإنشاء والتمييز بينهما،الفيلسوف أبو علي بن سينا،وابن خلدون و السكاكي مع اهتمام خاص ب"الخبر"لأنه برأيه "هو النافع في العلوم"، حيث يقسم ابن سينا الكلام إلى "خبر"و"طلب" على أساس معيار الصدق والكذب ،ولكنه يثريه ويعمقه عندما يركز في تحليله على البعد التداولي الذي يربط بين قصدية المتكلم و مراده من المخاطب من جهة وبين استجابة المخاطب وردة فعله من جهة أخرى.وعلى الرغم من ملاحظة ابن سينا لهذا المنحى التداولي في الفرق بين الخبر والطلب،فإنه لا يفصل هذه القسمة عن معيار الصدق والكذب، يقول:(و ذلك أن الحاجة إلى القول هي الدلالة على ما في النفس،و الدلالة إما أن تراد لذاتها،وإما أأأأاااااااتتتتاازززككمأن تراد لشيء آخر يُتوقع من المخاطَب فيكون منه، والتي تراد لذاتها هي الأخبار،إما على وجهها وإما محرفة كتحريف من المخاطَب.

ويقول"السكاكي" مؤكدا ذلك (اعلم أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره).

وقد قسم العرب الكلام إلى كلام خبري وكلام إنشائي وجاء هذا التقسيم مراعيا لما سبق ذكره يقول"ابن خلدون" في الكلام الخبري ما يلي: ألا ترى أن قولهم (زيد جاءني) مغاير لقولهم (جاءني زيد)من قبل أن المتقدم منها هو الأهم عند المتكلم، فمن قال:جاءني زيد، أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند إليه، ومن قال (زيد جاءني) أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند،وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام،من موصول أو مبهم أو معرفة،وكذا تأكيد الإسناد على الجملة،كقولهم: زيد قائم وأن زيدا قائم وإن زيدا لقائم،متغايرة كلها في الدلالة،وان استوت عن طريق الإعراب.

الفهرس

1-أحمد المتوكل الخطاب وخصائص اللغة العربية ،دراسة في الوظيفة والبنية والنمط دار إفريقيا الشرق ط1,الدار البيضاء,1991. ص13.

2- الجرجاني عبد القادر دلائل الإعجاز: تحقيق :أحمد مصطفى المراعي، المكتبة المحمودية التجارية،القاهرة،ط2 ص55.

3- المصدر نفسه ، ص: 273 – 274.

4- مقال حمادي صمود. النقد وقراءة التراث عودة إلى مسألة النظم، المجلة العربية للثقافة، ع24، 1993م، ص83.

5- أحمد الطريسي. تحليل الخطاب الشعري، من كتاب قضايا المنهج في اللغة والأدب، مطبعة الرسالة ، بيروت ،ط1 1996. ص80.

6 -إسماعيل علوي.حافظ ، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفة ،عالم الفكر، بيروت الطبعة الأولى ، 2004

7-الوظائف التداولية في اللغة العربية، دار الثقافة.الدار البيضاء المغرب الطبعة الأولى.1985.

8-مُحَمَّد سويرتي:اللغة ودلالاتها,التقريب التداولي للمصطلح البلاغي –مقال-,مجلة عالم الفكر,المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.الكويت,العدد الثالث ,مارس 2000.ص30.

9- أحمد المتوكل، لوظائف التداولية في اللغة العربية ،منشورات عكاظ المغرب الطبعة الأولى 1989 .،ص 47،

10-المرجع السابق. الوظائف التداولية في اللغة العربية ،ص 49.

11-المرجع نفسه ص51.

ISSN 2170-0796

قائمة المصادر والمراجع

-أحمد المتوكل،الخطاب وخصائص اللغة العربية ،دراسة في الوظيفة والبنية والنمط2010 الدار العربية للعلوم ناشرون.

- أحمد المتوكل،الوظائف التداولية في اللغة العربية ،منشورات عكاظ،1989.

إسماعيل علوي،حافظ،قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفة ،عالم الفكر2004.

-ابن سينا،الشفاء،المنطق،العبارة،تصدير:طه حسينّ،مراجعة ،إبراهيم مدكور،تحقيق:محمود الخضري وآخرون،بيروت ،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر،ج1.

- أوسيتين (ج .ل.)نظرية الأفعال الكلامية العامة,ترجمة:قنيني(عبد القادر),دار إفريقيا الشرق,الدار البيضاء,1991.

- أحمد الطريسي، تحليل الخطاب الشعري، من كتاب قضايا المنهج في اللغة والأدب.1999.

- آن وبول التداولية اليوم علم جديد في التواصل ترجمة :سيف الين دغفوس و مُحَّد الشيباني،مراجعة لطيف زيتوني ،المنظمة العربية للترجمة 2006.

-أنور الجندي،اللغة العربية بين حماتها وخصومها ، مطبعة الرسالة ، بيروت ،1996.

- الجرجاني عبد القادر، دلائل إعجاز: تحقيق:أحمد مصطفى المراعي.المكتبة المحمودية التجارية،القاهرة،ط2 دون تاريخ.

- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص،مطابع السياسة، عالم المعرفة،الكويت ، 1992،ص152.

***المجلات والدوريات**

-مُحَّد سويرتي.اللغة ودلالاتها، لتقريب التداولي للمصطلح البلاغي – مقال-,مجلة عالم الفكر,المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.الكويت، العدد الثالث ، مارس ، 2000.

- حمادي صمود. النقد وقراءة التراث عودة إلى مسألة النظم، المجلة العربية للثقافة، ع24، 1993 بيروت

- مُحَّد الشاوش. أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية..1996المغرب

-عبد الرحمان حاج صالح . "الأسس العلمية و اللغوية لبناء مناهج العربية في التعليم "في اللغة العربية إصدار، المجلس الأعلى للغة العربية،الجزائر1993.

ISSN 2170-0796